

(١)

الجوانب الإنسانية في خطبة حجة الوداع

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه العزيز : { الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا } ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَنَبِيَّنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ .
وبعد :

فإن الدين الإسلامي هو دين القيم في أسمى معانيها ، دينٌ يحترم آدمية الإنسان وإنسانيته بغض النظر عن دينه أو لونه ، أو عرقه ، أو جنسه ؛ حيث يقول ربنا سبحانه وتعالى في كتابه الكريم: { وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبُرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا }.

ولقد أرسل الله (عز وجل) رسوله (صلى الله عليه وسلم) برسالة إنسانية ، تدعو إلى القيم الفضلى ، والمثل العليا ، فقام (صلى الله عليه وسلم) بتبليغ رسالة ربه (عز وجل) على أكمل وجه ، وأتم صورة ، فظل طوال حياته يرسخ للقيم الإنسانية بقوله وفعله وتقريره ، وفي حجة الوداع وبعد أن استقر التشريع ، وكمل الدين ، وتمت النعمة، ورضي الله لنا الإسلام دينًا ، أكد النبي (صلى الله عليه وسلم) على ترسيخ هذه القيم الإنسانية في نفوس المسلمين وقلوبهم من خلال خطبته (صلى الله عليه وسلم) التي أرسى فيها قواعد الإسلام ، وهدم فيها مبادئ الجاهلية ، وعظّم فيها الحرمات ، وأعلى فيها من شأن الإنسان وقيمه .

ولا شك أن خطبة حجة الوداع تُعد أول وثيقة وإعلان عالمي للحفاظ على حقوق الإنسان ، لما اشتملت عليه من قيم إنسانية تحفظ للإنسان كرامته ، وتحقق له

(٢)

أمنه وسلامته ، فقد وقف النبي (صلى الله عليه وسلم) في جَمْعٍ من الصحابة في لقاءٍ مشهورٍ بين أُمَّةٍ ورسولها ، وهو يَسْتَشِيرُ مع كل حرف من كلماته دنوًّا أجله بعد هذه المناسك ، ليضع اللمسات الأخيرة لدستور المسلمين الإنساني ، فعن مُحَمَّدِ بْنِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ ، عَنْ أَبِيهِ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) أَنَّهُ شَهِدَ خُطْبَةَ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فِي يَوْمِ عَرَفَةَ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ ، فَقَالَ فِيهَا: (أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي وَاللَّهِ لَا أَدْرِي لَعَلِّي لَا أَلْقَاكُمْ بَعْدَ يَوْمِي هَذَا بِمَكَانِي هَذَا ، فَرَحِمَ اللَّهُ مَنْ سَمِعَ مَقَالَتِي الْيَوْمَ فَوَعَاهَا ، فَزُبَّ حَامِلٍ فَقِهِ وَلَا فَقِهِ لَهُ ، وَرُبَّ حَامِلٍ فَقِهِ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ) ، فتعالوا بنا لنقف مع بعض الجوانب الإنسانية التي اشتملت عليها هذه الخطبة الجامعة .

فمن هذه الجوانب الإنسانية ، ترسيخ مبدأ المساواة والكرامة الإنسانية بين الناس جميعًا كحق أصيل للإنسان يحفظ كرامته في المجتمع الذي يعيش فيه ، فقال (صلى الله عليه وسلم) في خطبته : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ ، وَإِنَّ آبَاءَكُمْ وَاحِدٌ ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ ، وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ ، وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ ، إِلَّا بِالتَّقْوَى ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ...) ، فجعل النبي (صلى الله عليه وسلم) معيار التفاضل هو التقوى والعمل الصالح ؛ امتثالاً لقول الله تعالى : {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} .

فالبشرية كلها سواسية دون تمييز طبقي ، أو تعصب قبلي ، أو مذهبي ، فالناس جميعًا ينتمون لأصل واحد ، وأب واحد ، هو آدم (عليه السلام) ، فمبدأ المساواة بين الناس مبدأ شرعي ، وقيمة إنسانية تحقق التوازن في الأسرة والمجتمع ، فإذا انتهك

هذا المبدأ بين أفراد الأمة عمّت الفوضى في المجتمعات ، وانتشر الفساد بين الناس .

ولقد كان النبي (صلى الله عليه وسلم) حريصاً على ترسيخ هذا المبدأ طوال حياته ، فقد أزال (صلى الله عليه وسلم) فوارق العصبية ، والقبلية بين أطراف المجتمع ، حين قال (صلى الله عليه وسلم): (سَلَمَانُ مِنَّا أَهْلَ الْبَيْتِ) ، وكان سيدنا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) يقول: (أَبُو بَكْرٍ سَيِّدُنَا ، وَأَعْتَقَ سَيِّدَنَا) ، يَعْنِي سَيِّدَنَا بِاللَّاءِ (رضي الله عنه) ، وكان (رضي الله عنه) يقول: (لئن جاءت الأعاجم بالأعمال وجئنا بلا عمل لهم أولى برسول الله (صلى الله عليه وسلم) منّا يوم القيامة) .

وكما رسخ النبي (صلى الله عليه وسلم) هذا المبدأ بقوله جعله واقعاً عملياً يتعايش به مع جميع الناس على اختلاف معتقداتهم ، ولا أدل على ذلك من قيامه (صلى الله عليه وسلم) حينما مَرَّتْ بِهِ جَنَازَةٌ ، فَقِيلَ لَهُ: إِنَّهُ يَهُودِيٌّ ، فَقَالَ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (أَلَيْسَتْ نَفْسًا) ، وَعَنْ أَنَسٍ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) ، قَالَ: كَانَ غُلَامٌ يَهُودِيٌّ يَخْدُمُ النَّبِيَّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَمَرِضَ ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَعُودُهُ ، فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ ، فَقَالَ لَهُ: (أَسْلِمَ) ، فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ وَهُوَ عِنْدَهُ ، فَقَالَ لَهُ: أَطَعُ أَبَا الْقَاسِمِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، فَأَسْلَمَ ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وَهُوَ يَقُولُ: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ) .

ومن هذه الجوانب الإنسانية التي أرسنها خطبة حجة الوداع حرمة الدماء والأموال والأعراض ، فعن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ ، عَنْ أَبِيهِ (رضي الله عنه) ذَكَرَ أَنَّ النَّبِيَّ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ: (أَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟ فَسَكَّنَا حَتَّى ظَنَّنَا أَنَّهُ سَيَسْمِيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ ، قَالَ: أَلَيْسَ يَوْمَ النَّحْرِ؟ قُلْنَا: بَلَى ، قَالَ: فَأَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟ فَسَكَّنَا حَتَّى ظَنَّنَا

(٤)

أَنَّهُ سَيَسْمِيهِ بِعَيْرِ اسْمِهِ، فَقَالَ: أَلَيْسَ بِذِي الْحِجَّةِ؟ قُلْنَا: بَلَى، قَالَ: فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ بَيْنَكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا لِيُبْلَغَ الشَّاهِدُ الْعَائِبَ، فَإِنَّ الشَّاهِدَ عَسَى أَنْ يُبْلَغَ مَنْ هُوَ أَوْعَى لَهُ مِنْهُ، فقد دلت هذه الكلمات البليغة ، بهذا الأسلوب النبوي البديع على عِظَمِ حرمة الدماء ، والأموال ، والأعراض وعصمتها ، وأنه لا يحل الاعتداءُ عليها بأيِّ نوع من أنواع الاعتداء ، فكل الدماء حرام ، وكل الأعراض مصانة ، وكل الأموال محفوظة .

فقد لفت النبي (صلى الله عليه وسلم) انتباه أصحابه (رضي الله عنهم) لهذا اليوم العظيم ، وذكرهم بحرمته ، وحرمة الشهر ، وحرمة البلد تقريراً لما ثبت في نفوسهم من تعظيمها ؛ ليبنى عليه ما أراد تقريره وتأكيدَه من عِظَمِ حرمة الدماء والأموال والأعراض ، وليؤسس لمجتمعٍ حضاريٍّ مستقرٍّ ، تسوده الألفةُ ، وثرأعى فيه الحرمةُ ، ويأخذُ فيه كلُّ ذي حقٍّ حَقَّهُ ، وتقوم العلاقةُ بينَ أفرادِهِ على التعاونِ والتراحمِ ، لينهضوا في نسيجٍ واحدٍ متلاحمٍ ، لا يحلُّ فيه لأحدٍ أَنْ يعتديَ على أحدٍ بأيِّ شكلٍ مِنْ أشكالِ الاعتداء .

ومن المعلوم أن حفظ الدماء والأعراض والأموال لا تمييز فيه في الإسلام بين مسلم وغيره ؛ لأن الشريعة كفلت ذلك لكل إنسان بغض النظر عن دينه ، أو جنسه ، أو لونه ، قال تعالى: {وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذِكْرِكُمْ وَصَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}، بل جعل الله (عز وجل) قتل نفسٍ واحدةٍ بغير حق كأنه قتلٌ للبشرية كلها، قال تعالى: {... مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا}، فلا يحلُّ لإنسان أَنْ يعتديَ على أخيه بأيِّ نوع من أنواع الاعتداء ، أو أَنْ يتعرضَ له بأيِّ لون من ألوان الإيذاء ،

(٦)

رواية : (مَنْ عَالَ ابْنَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثَ بَنَاتٍ ، أَوْ أُخْتَيْنِ أَوْ ثَلَاثَ أَخَوَاتٍ ، حَتَّى يَبْنَؤُا أَوْ يَمُوتَ عَنْهُنَّ ، كُنْتُ أَنَا وَهُوَ كَهَاتَيْنِ ، وَأَشَارَ بِأَصْبَعِيهِ السَّبَابَةِ وَالْوُسْطَى) ، وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ ، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ ، وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الصَّلْحِ أَعْلَاهُ ، فَإِنْ ذَهَبَتْ ثَقِيمُهُ كَسَرَتْهُ ، وَإِنْ تَرَكَتُهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ ، فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا) فكلمة (خيرًا) الواردة في الحديث كلمة جامعة مانعة توحى بوجوب التخلق بأسمى معاني الرجولة حين يتعامل الرجال مع المرأة.

كانت هذه بعض الجوانب الإنسانية من خطبة حجة الوداع التي احتوت على الكثير من المبادئ السامية ، والمشاهد الإيمانية الراقية ، والتي يضيق المقام عن ذكرها أو استقصائها، فما أجدر البشرية جمعاء أن تقف أمام هذا الهدي النبوي العظيم المتمثل في خطبة حجة الوداع التي جمعت في كل ألفاظها ومعانيها الخير للبشرية كلها ، فقد كانت بحق سبقاً في تاريخ البشرية حين أرست قواعد حقوق الإنسان ، ورسمت المبادئ والقيم الأساسية الإنسانية والخلقية، فلو تدبرها الناس وعملوا بما فيها ، لكانت سبباً في إسعادهم في الدنيا والآخرة.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله ، اللهم صلّ وسلم وبارك عليه ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

إخوة الإسلام :

ما أحوجنا إلى الاقتداء برسول الله (صلى الله عليه وسلم) وخاصة في الجوانب الإنسانية التي لم تعرف الدنيا لها مثيلاً لتستقيم حياتنا ، فلقد كانت بعثة النبي (صلى الله عليه وسلم) مفعمة بالفضائل الإنسانية ، ومكارم الأخلاق ، حيث يقول الحق سبحانه : { وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ } ، وأخبر (صلى الله عليه وسلم) عن هذه الرحمة فقال: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُّهْدَاةٌ) ، وبهذه الرحمة والرأفة نجح (صلى الله عليه وسلم) في تأليف قلوب مَنْ حَوْلَهُ ، وصدق الله حيث قال: { فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ... } .

وفي الختام ونحن في هذه الأيام الطيبة المباركة نذكر بسنة النبي (صلى الله عليه وسلم) بصيام يوم عرفة ، حيث قال (صلى الله عليه وسلم): (صِيَامُ يَوْمِ عَرَفَةَ أَحْتَسِبُ عَلَى اللَّهِ أَنْ يُكَفِّرَ السَّنَةَ الَّتِي قَبْلَهُ وَالسَّنَةَ الَّتِي بَعْدَهُ).

وكذلك من سنته (صلى الله عليه وسلم) الأضحية على القادر المستطيع ، حيث قال (صلى الله عليه وسلم): (مَا عَمِلَ ابْنُ آدَمَ يَوْمَ النَّحْرِ عَمَلًا أَحَبَّ إِلَيَّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ هِرَاقَةِ دَمٍ، وَإِنَّهُ لَتَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِقُرُونِهَا وَأَطْلَافِهَا، وَأَشْعَارِهَا، وَإِنَّ الدَّمَ لَيَقَعُ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ) بِمَكَانٍ ، قَبْلَ أَنْ يَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ ، فَطَيَّبُوا بِهَا نَفْسًا).

اللهم تقبل منا ، واقبلنا ، واجعلنا من المتقين .